# محمد بن عبد الملك الزيات

## للأستاذ عبد اللطيف ثابت

( تتمة ما نشر في العدد ٦١٢ )

وكما يسرف محمد بن عبد الملك في الظلم والقسوة ، فلا يكاد يقع تحت يده مأخوذ بجريرة حتى يعاقبه أشد العقاب ، وينتقم منه أقسى الانتقام ، ناسياً أن الله بالمرصاد لكل ظالم قاس ، وأن الزمن يومان يوم له ويوم عليه — يسرف كذلك في انتقاد الشعراء والكتاب ، يدفعه إلى هذا غلوه في اعتزازه بنفسه ، وثقته بعلمه وأدبه ، ناسياً أن له عيوباً ومثالب شأن كل إنسان ، فإذا لم يرفق بمن يتقدهم فليس يرفق به منقدوه .

كتب عبد الله بن الحسن الأصبهاني وهو على ديوان الرسائل إلى خالد بن يزيد « ان المعتصم ينفخ منك في غير فحم ، ويخاطب امرأ غير ذي فهم » فلما وقف عليه محمد بن عبد الملك قال : «هذا كلام ساقط سخيف ، جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد» .

ثم كان أن كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر يقول : «وأنت تجري أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنقصان ، ولا تميل برجحان » . فقال عبد الله الأصبهاني : « الحمد لله قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة بذكره ربح الساع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال» . فلم يلبث الأصفهاني أن انتصف منه ، وقد حقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه .

وذكر يحيى بن خاقان فانتقصه ، وقال عنه : هو مهزول الألفاظ ، عليل المعاني ، سخيف العقل ، ضعيف العقدة ، واهي العزم ، مأفون الرأي . وهذا نقد ، ولكنه ليس على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها النقد . وهو ناقد ولكنه في الواقع لا ينقد ، وإنما يسخر سخرية من يرى الناس دونه ، ويتهكم تهكماً لاذعاً لا ترتاب في أن باعثه الحقد على من يرى لهم في سماء المجد الأدبي سطوعاً ، كما يحقد على من تعلو درجاتهم في الحياة فيماثلونه في دولته أو يقاربونه . ولم يكن على رغم سلطانه وقوته بمنجوة من التهكم به كما يتهكم ، أو السخرية كما يسخر ، ولعل أشد من تهكموا به وسخروا منه في جرأة المغيظ المحنق ابراهيم الصولي الذي يقول له :

أبا جعفر خف خفضة بعد رفعة ... وقصر قليلا عن مدى غلوائكا
لئن كان هذا اليوم يوماً حويته ... فإن رجائي في غد كرجائكا

ويقول فيه :

قلت لها حين أكثرت عذلي ... ويحك أزرت بنا المروءات
قالت فأين السراة قلت لها ... لا تسألي عنهمو فقد ماتوا
قالت ولم ذاك قلت لها ... هذا وزير الإمام زيات

ويقول له :

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة
فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقا
من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ويقول فيه :

من يشتري مني إخاء محمد ... أم من يريد إخاءه بجمانا
أم من يخلص من إخاء محمد ... وله منى كائنا ما كانا

ونظن أن محمد بن عبد الملك الذي يقول : « الرحمة خور في الطبيعة وضعف في النية » ويقول : « ما رحمت شيئا قط » والذي يكثر أعداؤه وحساده ، حتى يضيق بهم ويضيقوا به ، وينال منهم وينالوا منه — تظن أن هذا الرجل لا يعرف قلبه الرفق ولا اللين ولا تحس نفسه شيئا من الأحاسيس التي تحمل على الرقة وتدفع إلى العطف ، وتلفت العقل إلى ما لا يهنأ العيش به ، ولا تجمل الحياة إلا بطلبه ، ولعلك تستبعد أن يكون منه ما يكون من ذوي القلوب الرقيقة فيواد أو يتعشق أو يتنادر ، فلا تنس أنه شاعر فهو في الواقع يجمع بين جفاء الحاكم القاسي القلب ، ورقة الشاعر الذي يحس بما في الحياة من لذة وألم ، وعرف ونكر .

اعتل الحسن بن وهب كاتبه ، فتأخر عنه أياماً كثيرة لا يأتيه رسوله ولا يتعرف خبره ، فكتب إليه الحسن :

أيهذا الوزير أيدك الله ... وأبقاك لي بقاء طويلا
أجيلا تراه يا أكرم الناس لكيما أراه أيضا جميلا
إنني قد أقمت عشرا عليلا ... ما ترى مرسلا إلي رسولا

إلى آخر أبيات رقيقة تضمنت عتبا رقيقا فأجابه محمد :

دفع الله عنك نائبة الدهـ ـر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وما ذا ـك من العذر جائزا مقبولا
إنني أرتجي وإن لم يكن ما كان مما نقمت إلا جليلا
أن أكون الذي إذا أضمر الإخـ ـلاص لم يلتمس عليه كفيلا
فاجعلن لي حظ التعلق بالقد ـر سبيلا إن لم أجد لي سبيلا
فقديما ما جاد بالصفح والعفـ ـو وما سامح الخليل الخليلا

واستتى منه الحسن نبيذاً وهو مع المعتصم ببلاد الروم فسقاه وكتب إليه :

لم تلق مثلي صاحبا أندى يداً واعم جودا
يسقي النديم بقفرة لم يسق فيها الماء عودا
صفراء صافية كأ ـن بكأسها درا نضيدا
وأجود حين أجود لا حصراً بذاك ولا بليدا
وإذا استقل بشكرها أوجبت بالشكر المزيدا

وكتب إليه راشد الكاتب وقد عاد من الحج

لاتنس عهدي ولا مودتيه واشتق إلى طلعتي ورؤيته
فان تجاوزت ما أقول إلى العصب فذاك المأمول منك ليه

فأجابه محمد :

يا بأبي أنت ما نسيتك في يوم دعائي ولا هديتيه
ناجيت بالذكر والدعاء لك اللـ ـه لك الله رافعاً يديه
حتى إذا ما ظننت بالملك الـ قادر أن قد أجاب دعوتيه
قمت إلى موضع النعال وقد أقمت عشرين صاحبا معيه
وقلت لي صاحب أريد له نعلا ولو من جلود راحتيه
ثم تخيرت بعد ذاك من الـ مصب اليماني بفضل خبرتيه
موشية لم أزل ببائعها أرغب حتى زها على بيه

وعشق جارية من جواري القيان ، فكان منه ما يكون من العشاق ذوي القلوب الرقيقة ثم بيعت الجارية لرجل من أهل خراسان وخرج بها ، فذهل عقل ابن الزيات حتى نشئ عليه ، وفيها يقول :

ياطول ساعات ليل العاشق الدنف
وطول رعيته للنجم في الصدف
ماذا تواري ثيابي من أخي حرق كأنما الجسم منه دقة الأسف
ما قال يا أسفا يعقوب من كمد إلا لطول الذي لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفاً فليستدل على الزيات وليقف

ويتمادى بدافع من التظرف في التشبه بشعراء المجون من أبناء عصره فيظهر الوله بغلام رآه على فرس ، ويتغزل فيه على سنتهم ولا يأنف أن يذكر به ، بل هو يتمنى أن لو كان فارس ذا الفارس وتؤثر عنه أمثلة من التنادر ، تصور ما طبعت عليه نفسه من رقة وظرف في بديهة حاضرة وخاطر سريع وإن ظهر في بعضها متهكما ساخراً ، وهو يقدر ما يجابه به أو يكتب إليه من ظريف التنادر فيطرب ويضحك ، ويوقع في جو الطرب والضحك بما يريد المتنادر ، بل قد يقربه إليه ويصطنعه .

فمن ذلك أنه جلس يوما للمظالم ، فلما انتهى المجلس ، رأى رجلا جالساً فسأله ألك حاجة ؟ قال نعم ، أدنني إليك فإنني مظلوم وقد أعوزني الإنصاف . قال ومن ظلمك ؟ قال أنت ، ولست أصل اليك فأذكر لك حاجتي . قال ومن يحجبك عني ؟ قال يحجبني عنك هيبتي لك ، وطول لسانك ، وفصاحة قولك ، واطراد حجتك . قال فقيم ظلمتك ؟ قال أخذ وكيلك ضيعتي الفلانية غصباً ، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك ملكها ، فوكيلك يأخذ الغلة وأنا أؤدي الخراج ، فهل سمعت بمثل هذا في الظلم ؟ فقال محمد قولك هذا تحتاج عليه إلى بينة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل أيؤمنني الوزير حتى أجيب ؟ قال نعم أنت آمن . قال البينة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء ، فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء ؟ إيش هذه الأشياء إلا العي والتغطرش ! فضحك وقال صدقت ، والبلاء موكل بالمنطق ، وإني لأرى فيك مصطنعا ، ثم وقع له برد ضيعته .

ومن ذلك أن أبا دهمان المغني سرق منه منديلا ديبقيا ، وأخفاه تحت عمامته ، وبلغه فقال .

وندیم سارق خاتلـ ـني وهو عندي غير مذموم الخلق
ضاعف الكور على هامته وطوى منديلنا طي الخرق
يا أبا دهمان لو جاملتنا لكفيناك مؤونات السرق